مدائن بلاد الشام عربية عتيقة

كلّ ما كتبنا في هذا الكتاب يشهد أن بلاد الشام عربية ؛ قديمة عروبتها ، وأن بلاد الشام جزء من جزيرة العرب ، كما أن الحجاز ونجداً ، واليمن والعراق ، ومصر من جزيرة العرب ، وقررنا أن اسم الشام عربي لغةً واشتقاقاً ووضعاً ، كعروبة أسماء اليمن ، ونجد ، والحجاز . فالأرض للعرب ، منها خُلقوا ، وعليها درجوا ، وهم الذين اختاروا الأسماء لأقاليمهم وبلدانهم .

وفي هذه الفقرة أُترجم لعدد من مدائن الشام وعواصمه ومراكزه الحضارية العتيقة ، التي حملت شعلة التنوير الحضاري إلى العالم :

• أورشليم:

اسم مدينة القدس العربي العتيق ، بمعنى مدينة السلام ، والسلام هو الإيمان ، وهو من أسماء الله الحسنى . ونحن ـ العرب ـ أَوْلى بهذا الاسم من اليهود ؛ لأننا وضعناه علماً على هذه المدينة قبل أن يوجد اسم اليهود على وجه الأرض ، وقبل أن توجد لغة اسمها «العبريّة» . فما يسمونه «اللغة العبرية» ما هو إلا تركيبة ملفقة من اللهجات العربية العتيقة ، هُجر لفظها في العربية الأخيرة ، ولم يُهجر جذرها واشتقاقها . و«أورشليم» من هذه المفردات التي جاءَت في الشعر العربي بلفظ «أوري سلم» كما قال الأعشى :

وطوّفتُ للمال آفاقه عُمَانَ فحمصَ فأوري شَلِمْ

واختارت العربية الجديدة من أسماء المدينة المباركة : «بيت المقدس» ، و«القدس» . .

و«القدس» ثاني أقدم مدينتين في جزيرة العرب ، الأولى مكة ، والثانية القدس . في مكة أول بيت وضع للناس ، وفي القدس ثاني المسجدين وضعاً . ومَنْ لم ير القدس ، ومسجدها الأقصى ، لم ير جمال الدنيا ، ومحاسنها ، ومن أعظم محاسن المسجد الأقصى أنه إذا جلس إنسان فيه في أيّ موضع منه ، يرى أن ذلك الموضع هو

obeikandi.com

أحسن المواضع وأشرحها؛ ولذا قيل: إن الله نظر إليه بعين الجمال، ونظر إلى المسجد الحرام بعين الجلال. وفي المسجد أماكن كثيرة وأوصاف عجيبة لا تُتصور إلا بالمشاهدة عِياناً. [عن «معجم البلدان» لياقوت الحموي].

● **دِمَشق:**

لقد أعطى أهل مصر «القاهرة» اسم مصر، يقول القادم إلى القاهرة من الأقاليم المصرية: أنا ذاهب إلى مصر.. وقالوا: «مصر أُمّ الدنيا»، وأرادوا القاهرة؛ لأنها كبرى المدن المصريّة، وأوسعها وأكثرها ازدحاماً، وتجد فيها سكاناً من جميع الأقاليم، فهي تشبه القول السائر: «كلّ الصيد في جوْف الفَرَا»، والفَرَا: حمار الوحش، يعني: مَنْ ظفر به، أغناه عن كلِّ صيد.

وكان الحال نفسه أو ما يشبهه لمدينة دمشق؛ فقد أعطاها أهل الإقليم السوري اسم «الشام»، وجمع أهلها بلفظ «الشّوام» على وزن «فعال» أو «فُعال». والواحد «شاميّ»، وهكذا سماها أيضاً أهل لبنان وأهل الأردنَ، وينادي أصحاب سيارات الأُجرة في بيروت وعمان: «إلى الشام»، وهم يريدون دمشق. وربما كتبوا على سياراتهم «بيروت ـ الشام» أو «عمّان ـ الشام».

وصنع ابن عساكر المتوفى سنة (571هـ) كتاباً اسمه: «تاريخ دمشق الكبير»، وهو كتاب في تراجم الرجال، فترجم فيه لكل مَنْ حلَّ في أيّ بقعَة من بلاد الشام؛ لأنه عدَّ دمشق عاصمة للشام، وعدَّ قرى ومدن الشام من أعمالها... وهنا أعطى الشام اسم «دمشق»؛ لأن دمشق «أم الشام»، ولا أعلم متى بدأ تخصيص دمشق باسم «الشام»، على لسان الناس، وليس على لسان الكُتّاب، ولكن ياقوت الحموي المتوفى في بداية القرن السابع الهجري، ترجم لمدينة دمشق في «معجم البلدان» تحت عنوان: «دمشق الشام»، فهل هو تركيب إضافيّ، (الشام مضاف إليه)، أم تركيب وصفي (الشام خبر)، ولم يترجم لـ«دمشق» أُخرى؟.

قلتُ: إن التركيب أراد به إعطاء دمشق كلّ ما للشام من مآثر؛ كما تقول: حاتم الكرم، وعنترة الشجاعة. وفيما بَعْدُ حُذف المضاف وبقي المضاف إليه، فقيل: «الشام»، والمراد: دمشق الشام، والله أعلم.

قال ياقوت الحموي في وصفها: البلدة المشهورة، قصبة الشام، وهي جنة الأرض بلا خلاف، لحسن عمارته، ونضارة بقعه، وكثرة فاكهته، ونزاهة رُقعه، وكثرة مياهه، ووجود مآرب. قال: ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها: كَثْرةُ الأنهار بها، وجريان الماء في قنواتها، فقلّ أن تمرَّ بحائط إلا والماءُ يخرج منه في أنبوب إلى حوض يُشربُ منه، ويستقي الصادر والوارد، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاهاً (ملجأ الصوفية) إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان، ويسحّ في ميضأة.

قال: وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله، ومن المُحال أن يُطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها، إلا وهو فيها أَوْجَدُ من جميع البلاد.

وقد عبّر أحمد شوقي عن جمال دمشق بلسان الشاعر، مستوحياً ما قاله ياقوت الحموي، فقال يصف دمشق وقد قدم إليها عن طريق لبنان:

خلّفتُ لبنانَ جناتِ النعيمِ وما ... علمتُ أن طريقَ الخلدِ لبنانُ

جرى وصفّق يلقانا بها بردى ... كما تلقّاك دون الخُلْد رضوانُ

والحور في دُمّرٍ أو حول هامتها ... حورٌ كواشف عن ساقٍ ووِلدانُ

آمنتُ بالله واستثنيتُ جنته ... دمشق رَوْحٌ وجنات وريحان[1]

والنظر إلى دمشق بأنها «جنة الأرض» هو بعض ما يُفهم من قوله تعالى: ﴿ بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾؛ أي: حول المسجد الأقصى، وهو الشام كله. فالبركة لا تعني أن الشيء المبارك هو الشيء الكثير، والجم الغفير؛ فقد يكفي الشيء القليل المبارك فيه،

(1) لقد اعتذر النقاد لشوقي، بأنه لا يريد ظاهر ما يُفهم من الشطر الأول، ولكنه عذر غير مقبول. والحقُّ أن نقول: أساء التعبير، بل أساءَ الأدب، ويُخشى على قائله من الكفر - والعياذ بالله -؛ لأنه استثنى الجنة من الإيمان. وقد يُفهم منه أنه آمن بجنة الله، ولكنه استثناها أن تكون أجمل ما خلق الله؛ لأنه يرى أن دمشق هي الأجمل..، وهو خطأ ينكره الدين؛ لأنه يرفع متاع الدنيا على متاع الآخرة، وبهذا تنتفي فكرة الثواب والعقاب، وتنتفي عقيدة التسابق إلى فعل الخيرات، وبذل المال والروح من أجل نعيم أعلى من نعيم الدنيا.

ولا يكفي الكثير المحروم من البركة. فياقوت الحموي رأى أن دمشق جنة الأرض بالاتفاق. . وفي أرض العرب ما تتوفر فيه من أسباب الخصب والنماء أكثر مما تتوفر في دمشق. ففي مصر نهر النيل من أكبر أنهار الدنيا، ولا يساوي نهر بردى ترعة من تُرعه، والمساحات الخضراء حول نهر النيل أضعاف المساحات حول نهر بردى. . فكيف رأى ياقوت دمشق جنة الأرض، ورآها من بَعْدُ أحمد شوقي جنة الله في الأرض؟!.

وبارك الله في أرض المسجد الأقصى (القدس)، وهي في رأس جبل قليل الإنبات. .

إنها البركة التي أودعها الله في أرض الشام؛ بحيث يكفي القليلُ منها الجمَّ الغفير من البشر. وكما قيل: إن الله نظر إلى القدس بعين الجمال، فكذلك حال بلاد الشام؛ لأن الجمال من البركة التي أودعها الله في القدس وحول القدس في الشام. ونَظَرُ الله إليه بعين الجمال، من معانيه أن يرى الناسُ الشام جميلاً في أعينهم، فيتوافدونَ إليه للنظر إلى جماله، وإن كان غيره أجمل منه.

واسم دمشق عربيّ عتيق، من اللهجة العربية الآراميّة، جاء بلفظ «دار مسق» أو «مشق» بمعنى: الأرض المسقيّة، ورجح أنيس فريحة أن يكون من «شوق»، وهو جذر يفيد الكثرة والوفر والنعم، فيكون المعنى بيت الوفر والغنى، وهذه التسمية تلائم غوطة دمشق «معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية».

قال الجواليقي في كتاب «المُعَرَّب من الكلام الأعجمي»: دمشق أعجميٌّ معرّب.

قلتُ: وهذا مما أخطأ فيه اللغويون العرب؛ لجهلهم باللهجات العربية العتيقة، واحتسابهم ما انتقل منها إلى العربية الأخيرة أعجمياً، مع أن «الآراميّة» لهجة من لهجات العربية التاريخيّة.

وإذا زرت مدينة دمشق، سمعت صوت الحضارة العربية في جميع أرجائها يناديك من جنباتها الجامع الأمويّ، وهو في أصله بناء عربيٌّ آراميّ، تحول إلى كنيسة في العهد المسيحي، وبعد الفتح العربي الإسلامي صولح عليه، فصار مسجداً، وفي جواره تسمع صوت المكتبة الظاهرية بجوار مرقد الظاهر بيبرس، والمدرسة العادلية

وأسواق دمشق القديمة: الحميديّة، ومدحت باشا.. وغير بعيد عنه تسمع صوت «الصالحية» ينبعث من مساجدها ومدارسها التي بناها بنو قدامة المقادسة الذين وفدوا من «جماعيل» بجوار نابلس.. ورواية قصة دمشق العلمية والحضاريّة لا تنتهي في ألف ليلة وليلة؛ فهي أمُّ الشام، وأُم حضارة تتوالد ويعيش فيها الأجداد والأحفاد حياة الأبديّة.

• عَمَّانُ:

عاصمة الإقليم الأردني، المنسوب إلى نهر الأردن، وهي من عواصم الشام الكبرى في العصر الحديث، ابتداءً من الربع الأول من القرن العشرين الميلادي، عندما صارت عاصمة لإمارة أميرها عبد الله بن الحسين بن علي.. (1882 ـ 1951م) صارت عاصمة «مملكة» أردنية هاشمية سنة (1946م).

و«عمان» مدينة عربية الموقع، عربية الاسم.

أما الموقع الجغرافي، فإنها من بلاد الشام، والشام كلُّه من جزيرة العرب؛ لأن سكانه منذ أن خلق الله الخلق، وقسّم الرزق، هم من الجنس العربيّ، وكلّ الذين حلّوا به من غير العرب، هم غزاةٌ عابرو سبيل..

أما الاسم العربيّ: فإن جذره، واشتقاقه يدلان على ذلك.

قال صاحب «لسان العرب»: وأمّا «عمّان» بناحية الشام، موضع يجوز أن يكون «فعلان» من عمَّ يعمُّ، لا ينصرف معرفة، وينصرف نكرة (يريد أن الألف والنون زائدتان). ويجوز أن يكون «فعّالاً» من عمن، فينصرف في الحالتين، إذا عنى به البلد. يريد أن النون أصلية في الكلمة. ومعنى «عَمَنَ، يعمَن: أقام. وانظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي ـ مادة (عمّان).

واسم «عمّان»، عربيٌّ عرفه العرب قبل الإسلام، بدليل أنه جاء في نصوص الحديث النبوي، ففي حديث الحوض أنه ما بين «عدن إلى عمّان البلقاء».

وجاء اسم «عمّان» في شعر القرن الأول الهجري، فقال الأحوص بن محمد الأنصاري المتوفى سنة (105هـ):

أقــولُ بعمَّـانٍ وهـل طربـي بـه إلـى أهـل سَـلْع إن تشـوقتُ نـافعُ

. . . فهو يقيم في عمّان، ويتشوق إلى أهله، أهل سلع، وسلع جبل بالمدينة النبويّة.

وقال الخطيم العكلي اللص يذكر عَمّان:

أعـوذ بربـي أن أرى الشـامَ بَعْدَهـا وعمَّـانَ مـا غنّـى الحمـامُ وغـرّدا

قال الدباغ في ترجمة «العمّونيين»: كانت عاصمتهم «ربّة عمّون»، والظاهر أنه مع مرور الزمن سقطت كلمة «ربّة» من الاسم المركب للتخفيف، وبقيت «عمّون» تدل على اسم المدينة الذي حُرّف إلى «عمّان». .

فإن صح ما قال، فإنه لا يخالف ما قلناه حول عروبة الاسم والمكان، ذلك أن العروبة في مفهومنا، موغلة في الزمان القديم، لا تقف عند حدود العصر الجاهلي السابق على الإسلام. وسواءٌ أخذت عمّانُ اسمها من «العمونيين» أو أن العمونيين أخذوا اسمهم من «عمّان»، فإن الاسم عربي الجذر، عربيّ الاشتقاق إن كان على صورة «عمّان» أو على صورة «عمّون» أو «ربّة عمّون». ومع ذلك فإنني أقدر احتمالاً آخر لصورة الاسم، وهو أن تكون العين في «عَمَّان» أو «عمّون» مقلوبة عن الهمزة «أمّان» أو «أمّون» فالهمزة والعين، تتبادلان الموقع بين اللهجات العربية العتيقة، وبين اللهجات العتيقة، والعربية الأخيرة. ومثالها: «عسقلان، أشقلون»، وهو من جذر عربي مشترك بين اللهجات يعني القوة والشدة والمنعة والصلابة، ومنه «إمّون» في الآرامية، بمعنى القوي الشديد. وفي العربية الأخيرة: ناقة أمون = صلبة شديدة، و«ربّة عمّون» أو «أمّون»، تعني: ربّة، أو صاحبة القوة.

. . ومهما كان شكل الاسم، فإنه ورد في السجلات الآشورية، في القرن التاسع قبل الميلاد، في سجلات شلمنصر الثالث (858 ـ 824ق.م) عند الكلام على معركة قرقرة، التي تحالف فيها عدد من ملوك الشام، للوقوف أمام المدّ الآشوري القادم من بلاد العراق. . .

ومهما كانت صورة الاسم، وتاريخ وضعه، وتاريخ وجود «العمّونيين»، فإنها لا تتصل بأي سبب بالخرافة التي يرويها كتاب يهود المسمى «التوراة»، فالقصة

التي ينقلها «العهد القديم» من «الكتاب المقدس» قصة معيبة، تتبرأ منها الإنسانية التي كرّمها الله، ورفعها فوق مقام الحيوانية، فكيف إذا نُسبت إلى نبيّ، وبنات نبيّ، والأنبياء نزههم الله عن فعْل صغائر الذنوب، بَلْهَ كبائرها. وقد روى كتابُ يهود في تعليل اسم «العمّونيين» و«المؤابين» قصة ساقطة ينكرها العقل والنقل، ملخصها: أنه عندما خسف الله بقوم لوط الأرض، ولم يبق منهم إلا لوط وابنتاه، فزعموا ـ لعنهم الله ـ أن ابنتي لوط سقتا أباهما الخمر في ليلتين متواليتين، وضاجعت الكبرى أباها في الليلة الأولى وهو لا يدري، وضاجعته الثانية في الليلة التالية وهو لا يدري، فحملت الأولى ولداً سمته «مؤاب» يعني من الأب، وأنجبت الثانية ولداً سمته «بن عمي» تعني أنه من قبيلتها[1]. وعندما كبر الولدان، أسسا قبيلتين الأولى: مؤاب، والثانية عمّون.

وقد بين «السمؤال بن يحيى المغربي (570هـ)» في كتاب «إفحام اليهود» أن هذه القصة موضوعة، اخترعها عزرا مؤلف التوراة للإساءة إلى المؤابيين والعمونيين؛ لأنهم كانوا يناصبون اليهود العداء، وللإساءة إلى داود، وذريته، وإبعاده عن زعامة اليهود؛ لأنه (عزرا) كان من الهارونيين، فزعم أن جدة داود «روث» من ولد مؤاب؛ ليقال: إن «داود» من مؤاب، الذي يعد من أولاد الزنا؛ لأن زواج الأب بابنته لم يكن حلالاً في يوم من الأيام حتى في زمن آدم. انظر: «إفحام اليهود» (ص147 ـ 154)، وفيها نقض القصة، وبيان كذبها لأسباب تاريخيّة، وأسباب علمية..

---

(1) وهذه القصة الأثيمة وردت فيما يسمى «سفر التكوين (19 ـ 30 ـ 38)»، ومما يحزنُ أن واضع القصة الخبيثة قد فاته أن يذكر لنا كيف أصبح ابنا لوط ـ عليه السلام ـ رأسي قبيلتين، وليس على وجه الأرض نساء يدخلان عليهن، هل يريد أن يقول: إنهما دخلا على أُمهما؟! لعل ذلك ما أراد أن يقوله المفترون على أنبياء الله ورسله، ولكن سكتوا عنه لفطنة القارئ.

وروى القصة ياقوت الحموي عن أحد اليهود، ولكنه قال: إنه بقي من الرجال لوط وأخوه، فضاجعت إحدى الأختين أباها، فكان منه «مؤاب»، وضاجعت الأخرى عمها، وجاء منه «عمّون»، وبنى الأول بلدة «مؤاب»، والثاني مدينة عمّان، وعقّب ياقوت بقوله: وهذا كما تراه، ونقلته كما وجدته، والله أعلم بحقه من باطله، وتعليق ياقوت غريب عجيب، وكيف يكون في هذه القصة حقّ وباطل، والله يعلم أنها باطلة؛ لأن الله لا يرضى عنها.

ومن مدن الإقليم الأردني: السلط، وإربد، والكرك، ومعان، والرمثا، ومؤتة... وكلها مدن عربية عتيقة، وُجدتْ في قرون ما قبل الميلاد.

• ومن مدن الإقليم اللبناني: بيروت: «مدينة الآبار»، و«طرابلس» (مدينة الإله بيل)، وصيدا، بمعنى: الصيد، و«صور» بمعنى: الصخر. وكلها مُدن عربية عتيقة، كانت مهداً للحضارة العربية الكنعانية الفينيقية.

• ومن مُدن الإقليم السوري: حلب، وحمص، واللاذقية، وطرطوس وإدلب، وحماة، ودرعا، وتدمر: وكلها مُدُنٌ عربية عتيقة.

• ومن مدن الإقليم الفلسطيني: نابلس، وعكا، وحيفا، ويافا، والناصرة، وغزة، وجنين، وطولكرم، والخليل، وبير السبع، وصفد، وكلها مُدُنٌ عربية كنعانية عتيقة اسماً ووضعاً، وتأسيساً.